إسْهَام سَعِيد بن حَكَم في النَّهْضَةِ الأدَبِيَّةِ في مَنُرْقَة

نافزة الشرباتي – الجَامعَة الإسلاميَّة العَالَميَّة (ماليزيا)
أ.د. حسن فليفل – جَامعَة الخليل (فلسطين)
أ.د. منجد مصطفى بهجت الجَامعَة الإسلاميَّة العَالَميَّة (ماليزيا)

يَهْدِفُ هذا البَحْثُ إلى تَسليط الضوء على الأمير العَرَبيّ سَعِيد بن حَكَم الذي تألّق فوق جَزِيرَة مَنُرْقَة نصف قرن من الزمان في المدَّة التي دانت معظم البقاع شرقي الأَنْدَلُس وغربه بيد النَّصَارَى، وهو صاحب أكبر البلاطات في بلاد الأَنْدَلُس، كان لا يفتُرُ عن النّظر في العلم وإفادته وأصبحتْ حضْرَتُهُ كعبةَ القُصَّاد من كل جهة، وأقام في جَزِيرَة مَنُرْقَة حُكْمًا يتّسم بتشجيع العلم والأَدَب ولذلك قصده أهل العلم وطلبته من الأَنْدَلُس وبرّ العدوة، وتردّد إليه تجار الكُتُب من مُسْلِمينَ ونَصَارى يحملون إليه نفائس المخطوطات، حتى أصبحت مَنُرْقَة في زمنه من أهم مراكز العلم والأَدَب، واجتمع في بَلاطه كثيرون من أَدَباء الأَنْدَلُس أثارهم أحداثُ بلادهم وأزعجتْهُمْ مَوَاطنُهُم فارتحلوا إلَيْه ارتحالا نهائيا أو عبروا إليه عبورا مؤقّتا لينالوا جوائزه وعطاياه. وأسْهَمَ سَعِيد نفسُهُ في إبداعات شعريّة مُتَنَوّعَة.

يتحدَّثُ البحثُ باختصارٍ عَنْ إسْهَام سَعِيد بن حَكَم في النَّهْضَة الأدَبِيَّة في مَنُرْقَة، بالحديث عن نَشْأته وَحَيَاته، وأهَمِّ صِفَاته ومناقبه، ثُمَّ ولايَته علَى مَنُرْقَة، ثُمَّ يخصِّصُ حديثًا عن بلاطه ويُسَمِّي أشْهَرُ العُلَماء والشُّعَرَاء الذينَ شملهم بلاطه، ويعدِّدُ مَوْضُوعَاته الشِّعْرِيَّة ويُلخِّصُ نَظْمَهُ فيها، ويستخلصُ أهمَّ السِّمَات الفَنِّيّة لنظمه، وكُلُّ هَذا بتَركِيزٍ واختِصَارٍ مع إثباتِ بعضِ الأمثلةِ الشِّعْرِيَّة .

أوَّلا: نَشْأتُهُ وَحَيَاتُهُ (601- 680هـ)

هو سَعِيد بن حَكَم بن عُمَر بن أحمد بن عبد العزيز بن حَكَم القرشيّ الطبيريّ، أبو عثمان، من أهل طَبِيرَة غرب الأَنْدَلُس، وبها وُلِدَ وتَرَعْرَع، جال الأَنْدَلُس وإفريقية برهةً طالبا للعلم والعمل (انظر ترجمته في: ابن الأَبَّار،658هـ، **الحلّة السِّيَرَاء** 2/318-320، **تحفة القادم**، ص118؛ ابن سَعيد،685هـ، **اختصار القدح**، ص28-41، **المغرب** 2/469؛ الغبرينيّ، 714هـ، **عنوان الدِّرَايَة**، ص 254-255؛ الصفديّ، 764هـ، **الوافي بالوفيات** 15/212؛ ابن الخطيب، 776هـ، **أَعْمَال الأَعْلام**، ص275-276؛ السّيوطيّ، 911هـ، **بُغْيَة الوعَاة**1/583؛ المقَّريّ، 1041هـ، **نفح الطيب**6/ 228؛ سيسالم، عصام، 1984م، **جُزُر الأَنْدَلُس المَنْسِيَّة**، ص 446-451، 539-544). ولا تُعطِي الكتب

معلوماتٍ كافيةً عن نشأته الأولى، أو تفاصيلا عن صباه وبدء حياته العمليّة، أو طبيعة تنقّلاته بين الأَنْدَلُس وإفريقية، وأسبابها الواضحة، وقد يكون تعرّض لمصاعب سياسيّة أدّت به إلى أن يترك بلاده إلى إفريقيا طلبًا للأمن، وما تذكره الرّوايات أنّه كان بأفريقية لما خاف من والي إِشْبِيلِيَّةَ دون ذكر تفاصيل عن ذلك (ابن الأَبَّار، 658هــ، **الحلّة السِّيَرَاء** 318/2).

وَلم يُذكَر سَعيد بن حَكَم كثيرا في كُتُب التّراث الأَنْدَلُسِيّ، فذُكرَ إشارة ودون تفصيل في كُتُب التَّارِيخ لأَنَّهُ احتلّ مكانا تاريخيّا بارزًا في حُكْمِ الولايات في تلك المدَّة الحرجة من تاريخ الأَنْدَلُس، وبجانب هذه المعلومات التاريخيَّة، وردت الإشارة إليه وإلى بعض أشعاره أحيانا في كُتُب التَّرَاجم أَدَبيَّة أو غير أَدَبيَّة، لكنْ احتفظ مخطوط "لُبَاب الأَلبَاب" بثلاث وخمسين قطعة وقصيدة من نظمه، كما حفظ له خمس رسائل أيضا، لذا يُعَدُّ الكتاب أهمَّ مصدر للوصولِ إلى شعره ونثرِه، وتفوّق الكتاب على جميع المصادر المعروفة التي احتَوَت نظم ابن حَكَم ومن أبرزها اختصار القدح لابن سعيد الذي احتوى على ستّ وثلاثين قطعة شعريّة لهُ.كما أنَّ الشعر والنَّثر الذي احتواه الكتاب يدل دلالة أكيدة على ازدهار الحياة الأدبية في بلاط ابن حَكَم، حيثُ استقطب هذا البلاط عددا كبيرا من العلماء والشُّعراء في الأَنْدَلُس، وأصبح ملجأ لكلّ أديب فقد مسقط رأسه، فوجد فيه المأوى والحماية والتّكريم .

صِفَاتُه ومناقِبُهُ

ذكر الغبرينيّ (714هـــ) في حديثه عن سَعيد أنه لقي مشايخ جُمْلَةً ممن يكثُر تعدادهم (**عنوان الدِّرَايَة**، ص 305)، وكان له علم بالعَرَبيَّة والأَدَب، وله ومشاركة في العلوم، فقد كان نحويّا أديبا، فصيح القلم واللّسان بارع الخطّ، مشاركا في الفقه والحديث والرّجال (الغبرينيّ، 714هـــ، **عنوان الدِّرَايَة**، ص304؛ السّيوطيّ، 911هـــ، **بُغْيَة الوعَاة** 583/1؛ ابن الخطيب،776هـــ، **أَعْمَال الأَعْلام**، ص275)، وحُمِدت سيرتُه، وكثر الانتفاع به في جزيرته (ابن الأَبَّارِ، 658هـــ، **الحلّة السِّيَرَاء** 2 /319)، وقال ابن الخطيب (776هـــ) إنَّهُ كان بعيد الهمَة اجتلابا لأهل العلم، واصطناعا له، وافتكاكا لمن تحصّل منهم بيد العدو(**أَعْمَال الأَعْلام**، ص275) وجمع بين مكارم أخلاق والسّخاء والمروءة (الغبرينيّ، 714هـــ، **عنوان الدِّرَايَة**، ص304)، وملك قلوب أهل مَنُرْقَة بحسن الخلق والإحْسَان (**اختِصَار القِدْحِ**، ص28).

وكان له دور كبير في إيواءِ اللاجئين وإنقاذِ الأسرى وحماية أهل الأَدَب وصلَة رجال الفضل والدّين، بحيث أصبحت حضرته كعبة القُصَّاد من كل جهة، وكان متواضعًا مع العلماء والشُّعَرَاء، كَريمًا في ضيافتهم واستقبالهم ومعاملتهم، يروى على سبيل المثال أنه حين عزم ابن سَهْل الإسرائيليّ (ت:649هـــ) على الرِّحْلَة عَنْ مَنُرْقَة إلى تُونُس وَدَّعَ بن حَكَم للسَّفَرِ في مركَبٍ، ودخَلَ عَلَيْهِ في المرْسى مَرْكبٌ حَرْبِيٌّ للرُّوم، فَحارَبَهُ وَضايَقَهُ.

فَسَمِعَ بذلك ابن حَكَم فَركِبَ بنَفْسه في قِطْعة خَيْلٍ، فلمّا وَصل المرْسى نزلَ إليه صاحبُ المركب الحَرْبيّ مُسلِّماً عليه، وَمُتَخَدِّماً لَدَيْه، وَتركَ المركَبَ الّذي كانَ فيه ابن سَهْل، فرَجَعَ مَعَهُ ابن سَهْل وَأَبي السَّفَر، ونظم أبياتا من الشِّعْر يمدحُه ويشيد بفعاله الجميلة التي أعطت له ذكرا جميلا(**ديوان ابن سهل،** 649هـ، ص186-189؛ **لُبَاب الألبَاب**، تحت الطَّبع، تحقيق: حسن فليفل، ص163)، وهذا كان ديدنه مع العلماء والشُّعَرَاء فامتلأ بلاطه منهم وفيهم، وكانت هباته تصل إلى الناس في بجاية وغيرها من الجهات (**لُبَاب الألبَاب**، ص80) ولشُعَرَاء عصره فيه مَدْحٌ كثيرٌ. إلا أنَّهُ كان شديد القسوة والعقاب مُستهينًا بالدّماء؛ قيلَ مثلا إنه أُتِيَ برَجُلٍ قد شرب الخمر، فأمر أنْ تُضرَبَ عنُقُه، في محضر الفقيه ابنُ مُفَوِّزٍ الذي أبدى انزعاجَه من هذا الأمر، وحلف أن لا يسمع عليه منه حديثا، بقَوْله: حفظك الله! تطلب راوية السُّنة وتصحيحها، وتتَعَدَّى حدود الله هكذا، والله! لا سمعتَ مني حرفا أبدا. فكان جوابه: يا فَقيه! هذه الجَزيرَة كثيرة العنب، والنّاس يشربون الخمر بها ويسكرون فيضيّعون الاحتراس فيظهر علينا العدو(ابن الخطيب، 776هـ، **أَعْمَال الأَعْلام**، ص276) .

ولايَتُهُ علَى مَنُرْقَة

اشتغل سَعيد بن حَكَم أوّل أمره بالكِتَابة عند بعض أمراء أفريقية في بجّاية وتونس، لكنّه لم يطل المكوث في المغرب العَرَبيّ؛ فقد انتقل سنة 624هـ إلى الجُزُر الشَّرقيّة للأندلُس، فولي الإشراف على أمور الجبايات والأجناد بجَزِيرَة مَنُرْقَة Manorica، ومَنُرْقَة تعني الصُّغْرَى، وهي واحدة من جُزُر البيليار، وأكبرها مَيُورْقَة ومنها كبريرا وأيفيسا (يابسة) وفورمنتيرا، وأحيانا يضاف إليها كنجيرا بالإضافة إلى حوالي مائة جَزِيرَة تتناثر حول الجُزُر الخمس الكُبرى، وتقع على السّاحلِ الشّرقيّ من إسبانيا (الحَمَويّ،621هـ، **معجم البلدان**216/5؛ سيسالم، عصام، 1984م، **جُزُر الأَنْدَلُس المَنْسِيَّة**، ص25؛ **دليل جُزُر البليار السياحيّ لعام 1987م**، ص1-11)، وعمل ابن حكم عند ابن يحيى صاحب مَيُورْقَة (الحميريّ، 1980م، **الرّوض المعطار في خبر الأقطار**، ص549)، ولم يكن دخولُه مَيُورْقَة وتوليته أمرا سهلا، فقد ثار عليه قَاضيها مُحَمَّد بن هشام، لكنه تغلّب عليه وحَكَمَهَا سنة 631ه (ابن الأَبَّار،658هـ، **الحلَّة السِّيَرَاء** 2/ 318)، وانفرد بحُكْم مملكته مَنُرْقَة إلى أنْ مات (ابن الأَبَّار، 658هـ، **الحلَّة السِّيَرَاء** 2/ 319)، وقد حسن تدبيرُه وعلا قدرُه، وأعظَمَتْهُ المُلوك (ابن الخطيب، 776هـ، **أَعْمَال الأَعْلام**، ص275)، فدُعيَ بـــــ (الرئيس)، وشارط الرومَ على متاركته، بإتاوة لم يُخلّ بحملها إليهم في كل سنة، وداري النَّصَارَى، وَحَسُنَ تعامُلُه معهم (ابن سعيد، 685هـ، **اختِصَار القِدْح**، ص28؛ السّيوطِيّ، 911هـ، **بُغْيَة الوعَاة**1/ 583) في مُدَّة امتلأت بها صدور النَّصَارَى بالحقد والكراهيّة والرّغبة في الانتقام. ويرى إحسان عبّاس(1980م) أن هذه السِّياسة مع النَّصَارَى هي التي أمّنت الطّرق التّجاريّة بين مَنُرْقَة ومختلف بلاد البحر المتوسّط، وهي التي أكسبت ابن حَكَم هيبتة عميقة في النّفوس واحتراما واسعا (**ديوان ابن سهل**، ص27 [المقَدِّمَة])، فدامت ولايته بمَنُرْقَة، حسبما يظهر من ترسيل أبي المطَرِّف وابن

الجنَّان وغيرهما، نحوا من خمسين سنة، وورث ولده أبو عمر الرِّياسَة بعد وفاته عام 680هـ (ابن الخطيب، 776هـ، **أَعْمَال الأَعْلام**، ص276) .

ثانيا: بلاطُهُ

كان ازدهار البَلاطَات الأَدَبيَّة في الغرب الإِسْلامِيّ في بلاد الأَنْدَلُس مَعْلَمًا واضحا من معالم ازدهار الأَدَب العَرَبِيّ من بدء الوجود العَرَبِيّ المتميّز في قُصُور الأَنْدَلُس حتى انهيار تلك المَمَالك والقُصُور، فوصف الشِّعْر تلك القُصُور وما كان بها من مجالس أدبيّة، ولم يكن وصول العُلَماء والشُّعراء إلى بلاط ابن سَعيد في هذه الجُزُر النائية غريبا. لكن لعدم ورود تفاصيل دقيقة في الكُتُب عن تلك المدَّة، لا يُوجَدُ حصرٌ دقيقٌ لعدد مَنْ تجمّع عند ابن حَكَم منهم، لكن جاء عند السَّلَفِيّ (576هـ) أنَّ أبا مُحَمَّد البلطيّ رأى أبا العرب الصقليّ بجَزِيرَة مَيُورْقَة وآخرين من الشُّعَرَاء (**أخبار وتراجم أَنْدَلُسية**، ص67)، ويُفْهَمُ من كلامه هَذا أنَّ هؤلاء الشُّعَرَاء لم يكونوا قلّة، وإلا لسمّاهم وعدّدهم إنْ كانُوا اثنين أو ثلاثة أو ما هو قريب من ذلك، لكن الواضح من قَوْلِه وآخرين أنهم كانوا كثيرين. كما أنّ ابن الأَبَّار (658هـ) حين تحدّث عن ابن حَكَم قال: "إنَّ كثيرًا مِنَ الأَدَباء استرقّهم بإعتاقهم، فنوّهت بصنيعه أمداحُهم، وآخرون ركبوا إليه ثَبَج البحر، ففازت بجميل اصطناعه قِداحُهم، وبالجملة فالجود المحض صناعته والأَدَب الغض بضاعته" (**الحلّة السِّيَرَاء** 320/2).

ومن المذكورين في بلاط سَعيد بن حَكَم الأَديب أبو الربيع سُلَيْمَان كثير (ت:636هـ)، والطبّب أبو الحَكَم ابن فتلة (الغبرينيّ، 714هـ، **عنوان الدِّرَايَة**، ص304)، ومنهم أحمد بن مُحَمَّد القيسيّ القرطبيّ المعروف بأبي حُجَّة، فأسر هو وأهله في بحر سبتة، وحمل إلى مَنُرْقَة، ففداه أهلها، فمكث ثلاثة أيام ومات سنة 643ه (السَّيوطِيّ، 911هـ، **بُغْيَة الوعَاة** 383/1). ولما استولى العَدُوّ على إِشْبِيلِيَّةَ ركب البحر إلى جزيرة مَنُرْقَة الشَّاعِر ابن العوَام الإِشْبيليّ وأقام عند ابن حكم إلى أن مات، وقصده كذلك الشَّاعِر أبو المطرّف أحمد بن عميرة (ت:658هـ)، والشَّاعِر ابن سهل الإسرائيليّ (ت:659هـ)، ولجأ الشَّاعِر أبو القاسم ابن يامين (661هـ) إليه سنة 641ه بعد سقوط شاطبة، وظلّ يكتب الرسائل والقصائد له حتى وفاته في تونس، والفَقِيه الرّواية أبو عبد الله مَحَمَّد التّلمسَانِيّ (ت:681هـ) الذي دخل ثغر مَنُرْقَة أسيرا فافتكه سعيد بن حكم، فعمل عنده كاتبا إلى أن وفاته، وأخوه إبراهيم التّلمسَانِيّ (690هـ) وغيرهم .... (ابن سَعيد، 685هـ، **اخْتِصَار القِدْح**، ص 42 – 52، 56-59، 179-180؛ **المغرب** 269/1 – 270؛ ابن الخطيب، 776هـ، **أَعْمَال الأَعْلام**، 276؛ المقَّرِيّ، 1041هـ، **نفح الطيب** 69/5 – 74)

وفي البحثِ عن السَّبب الذي جمع هؤلاء الأَدَباء والشُّعَرَاء فِي بَلاطِ ابن حَكَم يُلاحظُ أنّ هذا الأَمير جمع معظم العوامل التي قد تجذب العُلَمَاء أو الأَدَباء إلى أيِّ بلاط (انظر عوامل ازدهار الأَدَب في الحواضر الأَنْدَلُسيَّة: حسين، عبد الرزاق، 1994م، **الأَدَب العَرَبِيّ في جُزُر البليار**، ص37 – 40)، فلم يكن انجذابهم لبلاطه انجذاب مَنْ يبحَثُ عنِ المالِ والعَطَايا فحَسب، وبالتالي لم يكنْ إغراقُهُم في مدحِهِ لنيلِ عطاياهُ فحَسبُ، ولا تصدُق عليه وفيمَنْ كان في بلاطِهِ مقولة إميليو غرسيه غومس (1983م) عن المدح عند الأَنْدَلُسيّين حينَ قالَ:" كان الشُّعَرَاء يغرقون في المديح ويسرفون فيه دون مقياس أو ضابط، حتى تصبح قصائدهم لا صلة لها بشخص قائلها أو المقولة فيه، ومن الميسور جدّاً جعل معظم هذه المدائح بأسماء غير من قيلت فيهم بعد تحوير طفيف، وقد جرت العادة أن ينظم الشُّعَرَاء هذه المدائح في نظير صلات مقرّرة، وكان يحدث أنْ يَتَّفِقَ الشَّاعِر والممدوح على تقدير معيّن للصلة يتناسب مع جودة القصيدة" (**الشِّعْر الأَنْدَلُسِيّ**، ص 104)، وأعطى دليلا على هذا بيتين من شعر يحيى بن بقّي، يستاء الشَّاعِر فيها من سوء معاملة مَنْ يمدَحُهُمْ طالبا نوالهم وعطاياهم فيخذلوه (ابن خاقان، 529هـ، **قَلائد العِقْيَان** 927/2): [الطويل]

أَزُورُهُــــمْ لا للـــودَادِ وَقَـــدْ دَرُوا ... فَيَلْقَوْنَني بَيْنَ التَّــرَدُّدِ وَالغــلِّ
وَأَمْدَحُهُمْ – يَا حَسْبِيَ اللهُ – كَاذِبًا ... فَيَجْزُونَني بالمَنْعِ شَكْلًا إلى شَكْلِ

وحين نَتَتَبَّعُ ما قيل في سَعيد بن حَكَم ونقارنه بما قيلَ في الكُتُبِ عنْهُ وعنْ تَمَيُّزِ علاقته بمَنْ مَدَحُوهُ سَنَستبعد مقولة غومس هذه بحقِّ هذا الأمير وإنْ صدقت في غيره من البلاطات وعند غيره من الأمراء. ويوضّح ابن سَهْلٍ الإِسْرَائِيلِيّ شعراً سبب اجتماع الشُّعَرَاء فِي بَلاطِهِ واجتذابهم إليه بِقَوْلِهِ (ابن سعيد، 685هـ، **اخْتِصَار القِدْحِ**، ص82): [البسيط]

يَـــأْوِي لِعَلْيَـــاهُ مَحْمِـــيٌّ ... كَالماءِ فيه وُرُودُ اللَّيْث وَالحَمَـلِ
وَيشْـــتَهِي نَيْلَـــهُ مُثْـــرٍ وَذُو ... كَـــالرَّاحِ تَصْـــلُحُ لِلصَّـــاحِي

فعنده العطايا والهبات وأَهَمُّ منْهَا الأَمْنُ وَالطّمأنينة التي رفرفت على بلاطه فعاش في أفيائها المحْمِيّ والمضْطَهَدُ ليس العرب والمسلمين فَحَسْب، بل انظر إلى ما يَقُول ابن سَهْلٍ عن علاقة الرّوم به (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص82): [البسيط]

دَانَتْ لَكَ الـــرُّومُ دَيْـــنَ العَابِـــدِينَ ... غَدَى حُسَامُكَ فِي أَصْنَامِهِمْ صَـــنَمًا
أَضْحَتْ أَيَادِيكَ فِي أَعْنَـــاقِهِم رِبَقَـــا ... وظَنَّهَا النَّـــاسُ فِي أَيْـــدِيهِمُ نِعَمًـــا

ويُلاحَظُ ممَّا نَظَمَهُ الشُّعَرَاء في سَعيد بن حكَم وفي مراسلاتهم النَّثرية والشِّعْرِيَّة، أَنَّهُ كان يغدق في عطائِهِ على الشُّعَرَاء، وَأَنَّهُ خصَّص منحة شهريّة لكثير منهم ابن يامين يستعجل جارية الشهريّ عند سفره (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص58).

وغاب عن كُتُب التَّاريخ والأَدَب ذكر تفاصيل واضحة عمّا دار في بلاط ابن حَكم، لكن ممَّا وصل إلينا في الكُتُب عن مناقشته في إقامة الحدّ القاسي بالقتل على شارب الخمر المتقدّم ذكره إشارة إلى أن بلاطه كان

مجلس علم وفقه يناقشه فيه العُلَمَاء، ويراجعهم ويراجعونه في قضايا ومسائل فقهيّة دينيّة وفكريّة، ونتوقّع كذَلِكَ مناقشات حول قضايا لغويّة أو نحويّة لأنَّه كان ينتقد الشِّعْر والشُّعَرَاء والكتب والكُتَّاب.

ومِنْ أوّل إعلان أَدَبِيّ للأَمير ابن حَكَم في مَرُْقَة حين حيّى أهلها يتّضح ما استهواهُ من الصّفات التي يجبّ أنْ يكون عليها نجومُ بلاطه، فقد أشادَ بإعلانه بصفاتِ المجد والكرم ورجاحة العقل وقهر الأعداء حينَ قسّم بهذا الإعلان الشِّعريّ حروف اسم مَرُْقَة على هذه الصِّفَات المحببَّة عنده بقَوْله (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص42): [الطّويل]

فَلِلْمَجْد ذَاك الميمُ وَالنُّونُ وَمَا الرَّاءُ إلاّ للرَّجَاحَة في
وَفي القَافِ مَعْنَى القَسْرِ والقَهْر وَحَـــازَتْ بهـــا المَبالغَـــة

ثالثا: مَوْضُوعَاتُه الشِّعْرِيَّة

لم ينظم ابن حَكَم في الأغراض الشِّعْرِيَّة كافَّة، فقال في بعضِ الأغراض منها الغَزَل والمديح والرِّثَاء والشِّعْر الدِّينيّ والوعظ والزُّهد وفي العِلْمِ وَالكِتَاب والحَكمة والإِخْوَانيَّات وفي موضوعات أخرى مُتَفَرِّقة:

1 – الغَزَل: مع أنّ شعر الغَزَل عند ابن حَكَم قليل إلا أنه كان شِعْرًا جيدا، وضع فيه الأَمير أحاسيس إنسان رقيق، اشتهر بلين الجانب والرقة والليونة في مخاطبته لإخوانه ومَنْ حوله، فكيف به أمام الحبّ والحبيب، كما أنَّ الغَزَل جُزْءٌ مِنَ المِدْحَة التقليديَّة عنده، فمن نظمه الرّائق قولُهُ (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص31): [الكامل]

إني لَأَكْلَفُ باسْمها كَلَفــي بهَــا فَــانْظُرْ فَهَــذَا العَفَــافُ شــعَارُ
وَإذَا أَمُــرُّ بـــدَارِهَا فَكَأَنَّهَـــا قَـــدْ دُرَّ فيهَـــا أَوَابِـــلُ المِـــدْرَارُ
غَابَتْ فَأَبْكِي بَعْدَهَا شَوْقًا لَهَـــا وَالشَّمْسُ تَهْمُلُ بَعْدَهَا الأَمْطَـــارُ

وامتازَ نظمه ببساطة العبارات، منها على سبيل المثال حين يَقُول (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص34): [مجزوء الخفيف]

بَـــانَ صَـــبْرِي المُـــودِّعُ يَـــوْمَ بَـــانُوا وَوَدَّعُـــوا

والسّمة الغالبة على غزله التّقليد، ويختار من التَّشْبيهات التَّقْليديّة ما يتناسب مع مشَاعِره دون تجديد؛ فالمحبوبة بيضاء، وفي الخد حياء، وفي الجفون خمر، وثغرها كالنّوار الأبيض، ومقلتيها قاتلة، وهي بارعة الحسن، وحسنها يبري جسد العاشقين، وهي كالشمس، ورائحة المسك تنبعث منها، والأسنان كالبرد، والريق برد. وكعادة الشُّعَرَاء في الوقوف على الديار وقف ابن حَكَم عليها فسلّم على أهلها ودعا أنْ تسحَّ عليها سحائب الدَّمع وتسقيها (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص64)، وأكثر الحديث عن أثر الفراق وعن صبره وتجلُّده أمام اللائمين، وزاره طيفها بعد وحشه (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص34). وهكذا تظلّ أحواله في الغَزَل تُشَابِهُ أحْوال قُدماءِ الشُّعَرَاءِ العَاشقين، وغزله تقليديٌّ كغزل السَّابِقِين.

2- المديح: تنوّع مدح ابن حَكَم بين المُقَطَّعَات والمرتجلات والقَصَائد الطّويلة، لذا تنوّع أسلوبه في هذا الغرض الشِّعْريّ، لكن في الطّويلة منها التزم بعمودِ الشّعرِ العَرَبيّ؛ فبدأها بمقَدِّمَة غَزَلِيَّة تَقْلِيدِيّة، منها سبيل المثال مَدْحته التي أرسلها إلى الأَمير أبي يحيى الحفصيّ(ت:646هـ)، بدأها بقَوْله (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص 44-45):[الكامل]

لِلّـــهِ طَرْفُـــــــكَ مَـــا أَغَـــرّ   وَعَبِـــيرُ حُبِّـــكَ مَـــا أَصَـــــبَّ

ثُمَّ أحسن الانتقال فعَدَّدَ مناقبه، التي منها :

وَلَقَـــــدْ أَرَادَ اللهُ عِـــــزَّةَ دِينِنَـــــا   وَصَـــلاحَ دُنْيَانَـــا بِـــهِ إِذْ أُمِّـــرَا

ذَاكَ الأَمِـــيرُ المَـــائِرُ الجُـــودَ الـــذِي   يُمْتَـــارُ، إِذْ فِي جُـــودِه لا يُمْتَـــرَى

تَـــأْبِى سَـــجَايَاهُ الكَرِيمَـــةُ أَنْ يُـــرَى   إِلاّ كَرِيمًـــا مُوسِـــرًا أَوْ مُعْسِـــرًا

دَعْ مَا سَمِعْتَ بِذِكْرِهِ عَـــنْ حَـــاتِم   فَلَعَلَّـــهُ أَضْـــحَى حَـــدِيثًا يُفْتَـــرَى

وقلَّدت هذه المدْحة نهج القَصِيدَة التقليدِيَّة في المدْح، ويُلاحَظُ أنها تمثّل مدائح الأَنْدَلُسِيِّينَ في ذاك العصر، فصفات المَمْدُوح عندهم هي ما تعودناه في المدْحة عندَ المشارقَة كالمتنبيّ وأبي تمام، ولم تنحدر أو تتأخّر عن مستواهما، إن لم نقل أنها تنافست معهم في جودة التّعبيرات وجمال التَّشْبيهات؛ فالممْدُوح كالليث في بأسه، والغيث في جوده، وكالبدر وجهه، والنّدى في كفه، والممْدُوح ابن المُلوك، وما قام به يسجله التَّاريخ فتح الفتوح وكأننا بابن حَكَم يقارنه بالخليفة المعتصم في فتح الفتوح عمورية.

وأمتازت مدائحُ ابن حكم بِدِقَّة المعنى ووضوحه، مع جزالة الألفاظ والرّصانة في التّعبير، منها الأَبْيَات التي وَجَّهَهَا إلى الحضرة العليّة في تونس، فيلاحَظُ فيها والمستوى الجيّد في النّظم الذي بلغ ذروته حين أجلس الضَّيْفَينِ في ظِلّه فَوَجَدَا بَرْدَ القِرى مِنْ حَرِّ نار الحُرُوب بقَوْلِهِ (ابن سعيد، 685هـ، **اختِصَار القِدْح**، ص30): [السريع]

فَيَجِـــدُ الضَّـــيْفَانِ فِي ظِلِّـــهِ   بَرْدَ القِـــرى مِـــنْ حَـــرِّ نـــار

وظهر في مدْحَةِ ابن الحَكَم قدرة كبيرة على تطويع الكلام دون تكلُّف أو مبالغة أو تعقيد، مع طول نَفَسٍ. والمدْحَة ككّل شعرِه ابتعدت عن التّعقيد والفلسفة التي وجدناها في مدائح المَتَنّبي وأشباهه في العصور العَبَّاسية المتأخِّرَة .

3- الرِّثاء: رغم أن الرِّثاء لم يكن من الأغراض الشِّعْرِيَّة المنتشرة في شِعْرِ ابن الحكَم، إلا أنَّه أجاد فيه إجادته في المدْح وكان أكثر وأَحَدَّ رثائه ما جاء في رثاء بَنِيه، خاصَّة ابنه مُحَمَّد ثم ابنَته، فانطلق فيه من مرارة وحزن مع الاحتِسَابِ والصَّبر وَالتَّسْليم لقضاء الله وقدره، فقال (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص55- 56): [الكامل]

حُكْمُ النُّهـــى التَّسليـــــــــمُ   فَنِهَايَـــــــــــــــــــةُ

لا بُـــدَّ أَنْ يُلْقَـــى اضْطِـــراراً مَــــــنْ لمْ يكُــــنْ للصَّـــــبْرِ
أَوْدَى مُحَمَّــــــــــــــــــــــــد يُ، المُعتَـــــزِي للصّــــــفْوَة

وحين وَصَفَ فقيدَهُ، كان غصنا نضيرا، كما تعوّدْنا أن نجد في وصف الصّغار في قَصَائد الرِّثَاء التَّقْليديّة، وتشبيهاته عاديَّة تَقْليديَّة لاتختلف عما جاءَ به القُدَماءُ؛ فكان بدرا، وكان شمسا، وانتقل في مراثيه من وصف الفقيد، إلى وصف أثر الفاجعة على نفسه هو، وكيف استقبل المصيبة، مصوّرا حسرته ووحشته بعده، فقالَ:

لما حَوَاهُ ضَريحُهُ زَمَــــــــــــنَ ـــــف هَمَــتْ عَلَيْـــه مـــدامعُ
يـــــا رُزْءُ، صـــــغَّرْتَ الرَّزايــــا فكبارُهـــــــــا وَاللهِ غيْـــــــرُ
واحَسْــــرتاهُ علـــى فِراقـــكَ يـــا مَدُ مـــا امَّحـــى بـــدْرُ الـــدُّجَى

ورثا عبداً عنده اسْمُهُ موفّق وكان قد أمر بدفنه مع بَنِيه، وفي الأَبْيَات يوصي أبناءَهُ الأموات به، ويعتبره ضيفا حلَّ عندهم، آملا مرة أخرى، أنْ يلقاهم في ديار الخلد بعد أن ينهي رحلته في هذه الدّار الدُّنيا (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص66). ونظم مرتجلا حينَ بَلَغَتْهُ وفاةُ القائد أَبي بَكْرٍ يحيى الخزرجيّ (ت:634هــ). ومن غريب شعره ما نظمه ردًّا على قَصيدَة رَثى بها الوَزير أَبو القَاسمِ بن يامين (ت:661هــ) جملةً من أَقاربِه، اخْتَرمتْهُمُ المنيَّةُ بثغرٍ مَرُقَة منهمُ ابنتُه وابنُها قبْلها، فَلمّا وقف سَعيد بن حَكَم على ذلك الرِّثَاء، استجادَهُ واستحسنه، ودعاهُ ذلك إلى أن أَتْبع كُلَّ بيتٍ من تلكَ الأبياتِ بيْتًا من عنده؛ فالبيتُ الثّاني لهُ ثمّ الرّابعُ ثمّ السّادسُ كذلك، إلى أَن تَمَّت القَصيدَة (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص45-48)، وبهذه المزاوجة الغريبة بين أَبْيَات القصيدتين، وهذه المهارة في استكمال المعنى وتتابع الفكرة، تحدَّثَ عمّا يثير في نفسه الشَّجَن ويشعل اللَّوْعَةَ والحسرة فيها، اختَتَمَها بحِكْمَته في الموْت بقَوْله:

نهايـــــةُ كُـــــلِّ مَـــــنْ قَـــــرُب وَغَايـــةُ كُـــلِّ مـــنْ عَـــاشَ

4- الشِّعْر الدِّينِيّ: يظهرُ في الشِّعْر الأَنْدَلُسيّ تحَرّرا، وإن كان له ما يشابهه ويزيد عليه في المشْرِق، لكن عند الأَنْدَلُسيّينَ اتخذ لونا مُتحَرّرا جديدا، مُنْطَلقا مع جمال وسحر الطَّبيعَة، بالإضافة إلى تحَرّر المجتمعات الأَنْدَلُسيَّة أحيانا لمجاراتها ما تشاهده عند النَّصَارَى أو رغبة في التّحَرّر والانطلاق، فكان شعر اللهو والمرح، وكان شعر الغَزَل بالغلمان، وكان وصف مجالس الخمر، وكثرت هذه اللوحات الشعْريَّة المتحرّرة في الشِّعْر الأَنْدَلُسيّ، إلا أنَّ شعر سَعيد بن حَكَم خلا من أيِّ أثرٍ لهذا التَّحَرُّر، وعلى العكس، نجد في شعْره كثيراً من الالتزام وَالشِّعْر الدّينيّ، والحديث عن الطُّقُوس والمعاني الدّينيَّة؛ فكان فَقيها شَاعِرا، فودَّع شهر رمضان على سبيل المثال بقَوْله (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص37): [الطّويل]

صَحبْنَاكَ يَا شَهْرَ الصِّيَام غَريبًــــا وكُنْتَ لَنَا دُونَ الشُّهُورِ حَبيبًـــا
نَدِمْتَ عليْنَا وَالـــذُّنوبُ كَثــيرَةٌ فكَانَ رَجَاءُ العَفْوِ فيــكَ ذُنُوبـــا

ونظمَ مَرَّة شِعْرًا في لهوٍ في شهرِ رمضان، فاعتذر عن هذا فيما بعد بقَوْلِه (لُبَاب الألبَاب، ص66-68): [الرّجز]

وَحَقُّ هَذَا الشَّهْرِ شَــهْرِ الصَّــوْمِ   إِنّــــــــــي لنفْسِـــــــــــي
لنَظْمِيَ الأَشْعَار فِيـــه لَغْــــواً   وَالشِّــــعْرُ لا يُشْعَـــــرُ إلاّ

وأكمل قصيدته الطَّويلة هذه بأَبْيات طغى عليها شعرُ الحِكْمَة أكثر من الزّهد، وساعده على نشر الحِكَم الكثيرة بين أَبْيات القَصيدَة تَحَرّرُهُ من القافية فيها، فأرْسل الأَبْيات مُزَاوِجًا في قافية الصّدر مع العجز، وهذا مظهر آخر من مظاهر التّجديد، وقد يكون لم يتجاوزه خارج أَبْيات هذه القَصيدَة .

وخصَّصَ ابنُ الحَكَمِ قَصيدَة من جيّد قَصَائده في مَدْح الحبيب مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بدأ القَصيدَة بذكر الديار وساكنيها، وانتقل إلى الحديث عن مجالس لهو وليال قضاها مع أَصْحَابِه ليصل إلى الحديث عن النبيّ مُبينًا وَمُعَدّدًا بعضًا من مَعْجزَاته منها انشقاق البدْر له، والإسراء به للمسجد الأَقصى، وهميُ المـــــــــــــاءِ خلاَل أُصبعيْــه، ومعرفته بذراع الشاة المسمومة، وتسبيح الحـــــــــصى أمامه، وحنين الجِذْعِ له حتّى ضَمَّــــــــــــــــــهُ في كفِّــــــــــــــه (لُبَاب الألبَاب، ص60-63)، وافتخر بالنّبيّ مُحَمَّد عليه السّلام في الأَبْيات، لكن لم نجدْ له في الفخر بنفسه شعْرًا .

5- الوَعْظ وَالزُّهْد: تظهرُ شخْصيَّة سَعيد بن حَكَم بوضُوحٍ في نَظْمِه في الوَعْظِ وَالزُّهد، وشعر الوعظ والزهد جزء من الشِّعْر الدّينيّ، لكن لكثرته في شِعْرِه وانشاره في شِعْرِه يفردُه البحث غرضًا مستقلا، ومنه ما قاله في المُعْرِض عن السُّؤال والمُتعرِّضِ للنّوال، داعيا إلى عمل المعروف في كل الأحوال بقولِه (لُبَاب الألبَاب، ص53): [مجزوء الكامل]

لا تمْنَــــــعِ المعْـــــــرُوفَ   مًــــــــا مُعْرِضًــــــا
هــــــذا الّــــــذي مَـــــا   ــــــــعَلُ أَوْ أَقـــــــولُ

وتعجَّبَ ابنُ حَكَم في شعرِه من المُلوك الذين أصبحوا عبيدًا للشَّهَواتِ (ابن الأبّار، 658هــ، الحلّة السِّيَرَاء 320/2)، ووَجَّهَ أبياتًا إلى الفَقيه القَاضِي أَبا المطرِّف بن عميرة (ت:658هــ) حين تولّى قضاء قابس، دعاه فيها إلى الزّهد في هذه الدّنيا وعدم الكدّ والتّعب من أجل الحصول على شيء، فقال فيها (لُبَاب الألبَاب، ص82-83): [الطويل]

لَعمــــــرُك مَـــا أَبْغِــــــي مِــــنَ   فَــأَبْلغُـــــــــهُ حَتَّـــــــــى
فَقَـــــــــدْ صِــــــــرْتُ لا   لِنَفْسٍ دَعَاهَا مَـــا دَهَاهَـــــا

ليصل بعد كل هذه الرقائق إلى مَوْقفه منْ هذه الدُّنْيَا:

سَــــلَوْتُ عَـــــنِ الدنْيَـــــا   قَضَى مِنِّـــيَ الخُـــلاَّنُ فِيهَــــا

ويُوَضِّحُ ابن حَكَم أنَّ زهده وقناعته في هذه الدنيا سيطرت عليه بسبب وعظ الموت، وليس أيّ موت الذي طَهَّرَ نفسَهُ وارتفع بها عن ملذات الدنيا، إنه موتُ أبنائه، فيَقُول في القَصيدَة نفسها:

أُضْــــحِي بُنَّــــي فــــــــــِي وأُمْسِي إلى غَيْــرِ الضَّرِيــــــــحِ

ألا إنّني لم يبْقَ لــي مَــــــــأربٌ تُواربُــــــــــــــي عــَـــــــــنْ

وقِمَّةُ الزُّهْد حين يصل إلى قناعة أنّه راحل عن هذه الدّنيا (ابن الأبَّار، 658هـ، **المقتضب**، ص118): [الكامل]

يَا رَبِّ إني رَاحِــلٌ وَالــزَّادُ مَــا عنْــدي منْــهُ للرَّحيــلِ عَتَــادُ

وَالوَقْتُ عَنْهُ ضَيِّقٌ ولَــدَيْكَ مَـا يَسَعُ الوَرَى لهُمْ وأَنْــتَ جَــوَادُ

6- في العِلْمِ وَالكِتَاب: أقام سَعيد بن حَكَم في جَزيرَة مَنُرْقَة حُكْمًا يتّسم بتشجيع العلم والأَدَب فقصده أهل العلم وطلبته، وتردَّد إليه تجار الكُتُب من مسلمين ونصارى يحملون إليه نفائس المخطوطات، حتى أصبحت مَنُرْقَة في زمنه من أهمّ مراكز العلم والأَدَب، واجتمع فِي بَلاطِه كثيرٌ من أَدَباء الأَنْدَلُس أثارهم أحداث بلادهم وأزعجتهم من مواطنهم فارتحلوا إلى سَعيد بن حَكَم ارتحالا نهائيّا أو عبروا به عبورا مؤقّتًا لينالوا جوائزه وعطاياه (عباس، **ديوان ابن سَهْلٍ**،1980م، ص 26-27 [المقَدِّمَة])، فقد كان عالما محبّا للعُلَمَاء، لا يفتُرُ عن النّظر في العلم وإفادته (السَّيوطِيّ، 911هـ، **بُغْيَة الوعَاة** 583/1)، ولو لم يصل إلينَا شيء عن حبه للعلم والعُلَمَاء وتشجيعه لهم إلا ما نَظَمَ هو من أَبْيَات شِعْرِيَّة لظهر سعيد فيها عالما محبًّا للعلم، قارئا محبًّا للقراءة، أَميرا يجمع عنده الكُتُب، وناقدا يعرف ماذا يقرأ وكيف يقارن بين النّسخ، والأمثلة على ذلك عديدة وكثيرة، فقد كتب ملاحظات على بعض الكتب منها على سبيل المثال، كِتَاب معجم ما استعجم للبكريّ، فقد كَتَبَ على ظهره أبياتا منها (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص30): [مجزوء الرّجز]

مُعْجَـــــــــمُ مـــــــــا ــــــــجـــــــــــــبُ

بَـــــــــــــــــــــدأَهُ حتّـــى استتـــــــــــــــمَّ

وبَلَــــــــــغَ اليـــــــــاءَ أَنْشـــــــأَ رَوْضـــــــــاً

يرْحَمُــــــــــــــــــــه اللهُ أَحْسَـــــــــنَ فيمــــــــا

وَقَال أبياتا في الحديث عن ديوان، أعجب بما فيه (ابن سعيد، 685هـ، **اخْتِصَار القِدْحِ**، ص39-40)، ووقف على نسخة رديئة من الكِتَاب الكامل للمبرّد فكَتَبَ عدة أبيات على ظهرها (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص53)، وَجاءَ في ديوان ابن المعتزّ أن ابن المعتزّ داسَ قلماً فكسرهُ فقَالَ (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص39):[الطّويل]

لكَفِّـــــــي وَتْـــــرٌ عِنْـــــدَ أبــــــــــــــــادَت قتــــــــيلاً

فكَتَبَ سَعِيد بن حَكَم مقابل هذا البيت (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص40): [الطّويل]

لِكَفِّـــــــيَ وَتْـــــرٌ عِنْـــــدَ أَبادَتْ رضيعَ الكفِّ واللَّبن الحِبْــرُ

أَصارَتْ قُواهُ مُقْوِيـــاتٍ بوَطْئِـــه   وَآضَ كســـِيراً مالأَعْظُمِـــه جَبْـــرُ

وكانت له ملاحظات نقديّة على ما جاء في بعض الكُتُب، فقد قَالَ شيئا في كتاب في خزانته لمحَمَّد بن أَبِي بَكْرٍ البُرِّي بعد أن قرأ شيئا منه و لم يكمله بعد (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص36)، و لم يشتهر بحسن الخط فَحَسْب، بل كان ينقد ما خُطّ في الكُتُب أحيانا، فله نظم في كِتَاب أعجب بحسن الخطّ فيه (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص36). وحينَ وَرَدَ عَلَيْه الشّيخ ابن مُحرز الزُّهريّ (ت:655هـــ) من بجاية، وأهداهُ كتابًا يَتضمَّنُ نَثْرًا ونظْماً تعزِيةً عن ابْنه مُحَمَّد، وتهْنِئةً بمَوْلُود، ومعَ الكِتَاب هديّة وهي شِعْرُ المتنبّي وفَهْرسَةُ ابنِ عُبَيْد الله الحجْري وَسِفْر من الكامل، فقبِل ابن حكم شعْرَ المتنبّي والفهرسة وصَرَفَ سِفْرَ الكامِلِ إليه، ونظم في الهديّة أبياتًا شِعْرِيَّة (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص80)، وفي رسالة لابن همشك أورد اسطرًا ونظمًا في الحديث عن حسن كِتَاب الطالع السَّعيد في وصف أعلام بني سَعيد (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص104)، وتحدَّث يوما مع أصحابه عن القَاضِي ابن عَيَّاض (ت:544هـــ)، فأنشده بعضُ الحاضرين بيتا من كلام الشَّهْرزوريّ في مَدْح كِتَاب مشارق الأنوار لعَيَّاض فَوَصَلَهُ بن حَكَم بما يشهد بعميم فضله، وكريم اعتنائه بالعلم وأهله (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص34) .

و لم يكن هذا الأَمير يخجل من أن يستعير كُتُبا من إخوانه يقرأها ثمّ يعيدها إليهم، فقد كان محبًّا للكُتُب، راغبا في القراءة، و لم يكن يكدّس الكُتُب في مكتبته مفاخرا كما كان يحصل في بعض البَلاطَات الأَنْدَلُسيَّة. والأهمّ من هذا أنّ إخوانه لم يكونوا يخجلون من سؤاله إعادة ما أخذ من كُتُب منهم، وتورد الكُتُب أنه كَتَبَ إليه الأَديب أبو الربيع سُلَيْمَان المعروف بكُثيِّر يتشوّقه ويسأله اللّقاء، ويسأله إعادة كِتَابين عنده يحتاجهما، فجاوبه سَعِيد بن حَكَم شعرًا يخبره أنّ الكِتَابيْن قـــد أُشْخصـــــا إليه (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص65) .

و لم ينظم في الكُتُب فَحَسْب، وإنما ورد له بَيْتَان من الشِّعْر في وعاء خاص لأوراق الكُتُب يُسَمَّى خرطب (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص35)، وله كذلك بيتان في وصفِ المداد (ابن الأَبَّار، 658هـــ، **الحلَّة السِّيَرَاء** 320/2)، وَنُقِلَ هذا الاهتمام بالكُتُب وأدواتها منه إلى جلسائه وإخوانه، فعلموا اهتماماته، وهادوه بما عرفوا أنه الأهمّ عنده، فأهداهُ ابن يامين محبرة عاج، بعد أن رأى عنده محبرة أبنوس، كَتَبَ معها أبياتا من الشِّعْر (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص58).

7– الحِكْمَة: برزت الحِكْمَة في شِعْرِ ونثر سَعِيد بن حَكَم، وكان لها حضور واضح فيهما خَاصَّةً في موضوع الرِّثَاء، فقَالَ في رثائه لأبنائه (ابن الأَبَّار، 658هـــ، **الحلَّة السِّيَرَاء** 320/2): [الكامل]

مَـــا نحْـــنُ إلا في فَـــلاة   فَلْتُحْذَرِ الشَّهَوَاتُ في الفَلَـــوَاتِ

وله من شعر الحِكْمَة في الحضِّ على المَعرُوف (ابن سعيد، 685هـــ، **اخْتِصَار القِدْحِ**، ص28-29): [مجزوء الكامل]

لا تمْنَـــعِ المعْـــرُوفَ يَـــوْ   مًا مُعرِضًا وَمُعرِّضًـــا
فَكِلاهُمَـــا مِـــنْ حَقِّـــهِ   فِيـــهِ لَـــهُ أَنْ يُفْرَضَـــا

وقال في الصَّفْحِ عن الذُّنوب (**اخْتِصَار القِدْح**، ص31): [مجزوء الكامل]

الحقْـــدُ دَاءٌ في القُلـــوبْ وَالصَّفْحُ مِنْهُ هُـــوَ الطَّبِيـــبْ
فَاحْلُمْ عَنِ الجَـــانِي فَقَـــدْ يَدْعُوهُ حِلْمُـــكَ أنْ يَتُـــوبْ
وَانْـــسَ الـــذُّنُوبَ فَإِنَّمَـــا ذِكْرُ الذُّنُوبِ مِنَ الـــذُّنُوبْ

وفي حديثه عن رمَضَان قال (**لُبَاب الألبَاب**، ص68): [الرجز]

إنَّ اللّســـــــــــــــــــــــانَ في وَمَقْتَـــــــــــلُ الإنْسَـــانِ

وحين َبلَغَتْهُ وفاةُ قائد عنده قال (**لُبَاب الألبَاب**، ص54): [الخفيف]

هِـــيَ الآجَـــالُ مَـــا فيهَـــا وَلا نَقْـــــصٌ وَلا عَنْهَـــــا
نِهايَـــةُ كُـــلِّ مَـــنْ قَـــرُبَ وَغَايَةُ كُـــلِّ مَـــنْ عَـــاشَ

وظهرت الحِكْمَة كثيرًا فِي شِعْرِ ابن حَكَم، لكنّها لم تكن أَبْيَاتًا مُتَتَابعة مُتَتَالية كما هي مثلا عند المَتَنبّي، ومن الملاحظ أنَّ حِكْمَتهُ كانت تعتمد في معظمها على التّجربة وواقع الحياة أكثر من اعتمادها على الفلسفة والمنطق، لذا جاءت معظم أشعاره في الحِكْمَة بسيطة بعيدة عن العمق والفلسفة، لكنّها لم تكن ساذجة، وكانت تختصر الكثير وتدعو إلى الكثير، وجلست بين سطور نظمه في مكانها، فأدَّت الغرض منها وأعطت عمقا للكلام حولها.

8- الإِخْوَانِيَّات: إذا كان تعريف شعر الإخوان بأنَّهُ ذاك الشِّعْر الذي يقَالَ فيمن هم بمترلة الإخوان، يمكنُ القول أن نظم سَعِيد بن حَكَم في الأغراض السابقة كلّها مِنَ الإخْوَانِيَّات، فالغَزَل كان مقدِّمَة في أغلبه للمَدْح، والمدْح في أغلبه إن لم نكن جيمعه كان مَدْحا لإخوان يحيطون به ويجالسونه ويسامرونه، ويراسلونه، ويشتاقون لمجالسه ويشتاق لرؤيتهم، والرِّثاء اتخذ الشَّكل نفسَهُ، فمعظم شعر هذا الأَمير كان ضمن ما يسمى بشعر الإخْوَانِيَّات.

ولم يكن نظمه في الإخْوَانِيَّات بيتًا أو بيتَيْنِ أو مُقَطَّعَات شعرية فحسبُ، فقد كتب قصائد كثيرة إلى أبي القَاسِمِ بن يامين (ابن سعيد، 685هـ، **اخْتِصَار القِدْح**، ص37)، فَجَاوَبَه على رجزٍ لهُ في قَصِيدَة (**لُبَاب الألبَاب**، ص31-32)، وكَتَبَ إلى بعض أصحابه، يستعجله في التَّوجيه بنظْمٍ كان وعدَهُ به، وحين وصل إليه ذلك النَّظْمُ، كَتَبَ أبياتا يستحسنُ النَّظمَ والخَطَّ (**لُبَاب الألبَاب**، ص64)، وأَهدى إليه القَاضِي أَبو بَكْرٍ بن الطّيّب (ت:619هـ) قوساً وأَصحبه خطاباً سأله فيه العبورَ إلى مَنُرْقَة والاستيطان بها فَجُووبَ عنه وأودعَ الجوابَ مُدْرجةً فيها بخطّه من نظمه (**لُبَاب الألبَاب**، ص38-39)، ووَرَدَ عليه خطاب يتضَّمن نَثْرًا ونظماً من الوَزِير أبي مُحَمَّد الهِنْتَاتيّ الجيّانِيّ، فراجعه عن ذلك بعد مدّة بقَصِيدَة طويلة (**لُبَاب الألبَاب**، ص59) .

ومما زاد محبّته في قلوب إخوانه أنَّهُ لم يكن يهمل مكاتباتهم وكان يحاول الإجابة على كل ما يسألون، فنظم مجاوباً عن السّؤال عن شكْوٍ عرَضَ لَهُ (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص35)، وكان يبادر بالسُّؤَال عنهم والاطمئنان عليهم، ويشتاق إلى مجالستهم، فقَالَ يتفقد ابن يامين بعد غيبته مدَّة بأبيات منها (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص35): [الخفيف]

يَا أَبَا قَاسِمٍ وَقَتْكَ الأَوَاقِي ... وَسَقَاكَ الحَيَا وَحَيَّاكَ سَاقِ

غِبْتَ عَنَّا فظَلَّ ظِلُّكَ وَهْوَ ... أُنْسُ خَلْفَ الحِجَابِ لِلأَحْدَاقِ

لا عَدِمْنَاكَ مِنْ جَلِيسٍ أَنِيسٍ ... مُعْرِقٍ فِي آدَابِ أَهْلِ العِرَاقِ

وشكا أَحَدُ مَنْ صَحِبَ مِن الأُمراءِ عَيْنَهُ، فأرسل ابن حَكَم أبياتا يسأل عنه يريد أن يطمئنّ على أحواله (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص57)، ولم يبخل على إخوانه بالتّعبير عن حبّه لهم، فقَالَ لصاحب من إخوانه يعبّر عن ودّه له (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص40)، وكَتَبَ إلى رئيس من أهل تونس يبلغه شوقه وتحياته له (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص40)، واجتاز به رسولا الشّيخ ابن الغريغر سُلَيْمَان التينمليّ فبالغ ابن حَكَم في إكرامه، ثم كَتَبَ أبياتا إليه مُتَمِّمًا لمبَرَّتِه (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص34). واتّصف ابن حَكَم بحسن الأَدَب ولطيف التّعامل مع جلسائه وإخوانه، فروي أنَّه جلس مع الفَقيه ابن مُفَوِّز، فذكر سببا أوجب القيام والدخول إلى الدار، فاستعظم ابن مُفَوِّز ذلك، فاعتذر عمّا صدر منه بأبيات أرسلها إليه بعد أن انفصل عن مجلسه (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص35)، وخاطب أَبا المطرّف بن عميرة بأَبْيَات لخّص فيها كثيرا مما يريد أن يَقُولَهُ حول أهميّة الأخوة في حياته، ويوضّح فيها كثيرا من إِخْوَانِيَّاته (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص84- 85) .

وتوَقَّعَ البحثُ أنْ يجد في أشعار سَعِيد بن حَكَم وصفا كثيرًا للعديد من الطَّرْدِيَّات ومجالس الأُنْس والسَّمَر واللهو في أحضان الطَّبِيعَة لكثرة الإخوان حوله، ولكثرة اهتمامه بإخوانه، لكن لم يعثر البحث على هذا له منفردا أو مع أصحابه، ولم يصف الطَّبِيعَة كما تعوّد شُعَرَاء الأَنْدَلُس أن يفعلوا مبهورين بما أحاط بهم وشاهدوه في تلك البقعة الخلابَة، ولم تظهر هذه الصّور عند سَعِيد بن حَكَم، وقد يكون السّبب هو كثرة الإخوان حوله، فيرى البحثُ أن الأَنْدَلُسِيّ خرج الى الطَّبِيعَة طالبا المشاركة الوجدانيّة، آملا أن يحدّثها فتسمعه ويناجيها فتصغي له، ويسألها فتجيبه، فوجد بها الخلّ الذي به بعض الوفاء، فالجبل يستمع له، والنهر يضحك له، والزهر يضاحكه، وكل ما في الطَّبِيعَة يشاركه مشَاعِره، لكن ابن الحكم كثر الأصدقاء حوله، وكثر المستمعون له، والمشاركون له، فكأنّه اكتفى، ولم يعد بحاجة أن يَبحْث عمّن يَبُثُّهُ أسراره ويناجيه. ومع ذلك له أبيات في وصف ليلة متعة وسرور (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص66)، وممّا يرد عن لهوه في صباه، ما قاله في امرأة جميلة مرّت به، وكان زوجها شُرَطيا (ابن سعيد، 685هـ، **اخْتِصَار القِدْحِ**، ص39)، وكتب بن حَكَم أبياتا من الشِّعْر مُتَنَدِّرًا بحادثة حصلت له مع صحبه حين زاروا مترلا لأبي المتوكّل الهيثم، وصف بها ما حصل في زيارتهم (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص50)، ووصف مجالس أنس ولُيَيْلات

جميلة مع الأحبّة في مقدِّمَة قَصيدَة طويلة أراد بها مَدْح الرسول عليه الصلاة والسلام هذا مطلعها (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص35، 60-63): [الرمل]

يَـــا رَعَـــى اللهُ لُيَـــيْلات إِنَّمَـــا كَانَـــتْ ضِـــيَاءً لا

فكانت الأَبْيَات مقَدِّمَة وتقليدا، و لم تكن انعكاسا لنمط حياة يعيشها، أو أيّام يتكرَّر ورودها، ولما طال فِطام الشَّاعِر ابن العوّام الإِشْبيليّ عن المدام بشهر الصيام، كتب إلى ابن حكم ليلة القدر، فجاوبه مشيرا إلى الحدَّ، وأعلمه بوجوب المهر والعقد (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص180)، وكَتَبَ ارتجالا لابن مُفَوِّز يصف روضة (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص35).

ويصل البحثُ إلى أن الشُّعَرَاء قد أحاطوا به دوما، ولازموه في كثير من أحواله، يؤكّد هذا المُقَطَّعَات الكثيرة والمرتجلات المتعدّدة والمتفرّقات في كثير من المناسبات والمشاهدات، فكان دائما يخاطب الشُّعَرَاء الذين أحاطوا به كظله، وكأنّ بلاطه الشِّعْريّ كان معه في حلّه وترحاله، يلازمه ولا يفارقه.

9- مَوْضُوعَاتٌ مُتَفَرِّقَة: سَعِيد بن حَكَم شَاعِر البديهة والارتجال، و لم يكن شَاعِر مناسبات تقيّده وتحدّد نظمه، لذا تنوّعت موضوعاته، و لم تَتَحَدّد بغرض أو غرضين، بل سَطَّر جزءا كبيرا من شخصيّته وأفكاره ومشاهداته فيما كَتَبَه شِعْرًا، وانتقل من قول إلى آخر من أقواله الشِّعْرِيَّة، فكَتَبَ أبياتًا في الحضِّ على تعلُّمِ العَرَبِيَّة (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص37)، ونظم غيرها في خيريّ أَصفر وأَبيض وأَحمر حوته شَمّامة والشَّمَّامات هي ما يُتشمَّم من الأرواح الطيّبة (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص37)، وقَالَ في وصف رجُلٍ مصلوب (**لُبَاب الأَلبَاب**، ص36)، وكَتَبَ في وصف مجلسه مع إخوانه بمُنْرُقَة (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص37)، وقَالَ في كِنانَة بعث بها إلى حضرة تونس (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص35)، وقَالَ في مؤذّن سيّئ النَّغَمة (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص30)، ومن قَوْلِه ارتجالا لمُحَمَّد بن الحلاب وقد وهب له تحفا منوَّعة، ووجَّه له معها صندوقا (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص31)، وله ارتجالا في دَنَس الثّياب (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص30): [الكامل]

أَعْيَا عَلَى الغُسّالِ غَسْلُ ثِيَابِـــهِ وَتَقَاصَـــرَتْ عَنْهَـــا يَـــدُ

وَلَقَدْ طَلَبْتُ لَهَا غَوْلا جَاهِـــدًا فَلَمّا ظَفَرْتُ لَهَا بِغَيْـــرِ النَّـــارِ

رابِعًا: السِّمَات الفَنِّيّة لِشِعْرِه

كَتَبَ سَعِيد بن حَكَم الشِّعْر صغيرا، فقد أثبتَ ابن سَعِيد في اختصاره للقدح أبياتًا كَتَبَها أيام شبابه إلى والديه في المريّة، حين كان في الشّرق يرتحل لنيل المجد والعلم (**اخْتِصَار القِدْحِ**، ص38)، وَتُمُرُّ الأَيّام فإذا بهذا الشّاب الصّغير يصبح رجلا يافعا، وهذا الرّجل يصبح أميرا، وهذا الأمير رئيسا وسَيِّدًا عظيما، تهابه الأعادي وتتقرّب إليه الأعيان، ويعيش مدَّة مُهَادَنَة سِيَاسِيّة دامت نصف قرن من الزّمان في وقت انهارت فيه دُوَيْلات العرب في الأَنْدَلُس

وعَمَّ الضَّعف واستَشْرَى الفساد. ويقول بروفنسال(1960م):"إنَّ فترات المهَادَنَة السِّيَاسِيَّة هي دوما أكثر الفترات ملاءمة لازدهار الفكر وتطوّره ولعمل المؤثّرات الثَّقَافيّة الأكثر فَعَاليّة وَخصْبًا" (**حضارة العرب في الأَنْدَلُس**، ص42)، وبالبحْثِ في شعْرِ سَعيد بن حَكَم ومن التَفَّ حوله من الشُّعَرَاء تصدُقُ مقولة بروفنسال هذه، فيجدُ البحْثُ ازدِهاراً وتطَوُّرا ثَقَافيًّا في هذا البلاط رافق فترة المهَادَنَة السِّيَاسِيَّة التي صاحبت هذا البلاط الأدبيّ وهذا الشَّاعِرِ .

وتَمَيَّزَ شعر ابن حَكَم بسلاسة التّراكيب وبساطتها، وقد يكون لسهولة الطباع لديه، ولين الأخلاق عنده، ورقة الطَّبِيعَة حوله أثر في ذلك، كما أنَّ ارتجاله القول معظم الأحيان أعطى تعبيراته عفويّة دون تكلّف ولا تصنيع، لذا جاء الشِّعْر عنده جاريا مع الطَّبع والبديهة والعفويّة، مع المحاورة البسيطة أحيانا، وسهلت التَّعْبيرات ولانت التّراكيب، وطغت البساطة والعفويّة على المعاني والأفكار فقال (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص33-34): [مجزوء الخفيف]

بـــــانَ صَـــــبْري المــــودِّعُ	يــــومَ بَــــانُوا وَوَدَّعُـــوا
جَهِـــــلَ الّلائمُـــــونَ لي	قَدْرَ مَا القلْـــبَ أَوْدَعُـــوا
شانَكُمْ يا لِئامُ وَالْـــــــــ	ـــــــــــــــــــــلَّوْمُ

إلا أنَّ الرقة السُّهولة في ألفاظه وتعبيراته لم تقده إلى استخدام اللغة الدّارجة أو الكِتَابة في الألوان الشعبيّة كالموَشَّحَات والأزجال. وامتاز نظمه بوضوح المعاني وبعدها عن العمق أو الفلسفة، وهذه السِّمة لم تكن سمة سَعِيد بن حَكَم منفردا بين شُعَرَاء عصره، بل إنَّ جُلَّ الشِّعْر الأَنْدَلُسيّ خلا من العمق وفلسفة المعاني .

ومن أهمّ السِّمات الفَنِّيَّة فِي نَظْمِ سَعِيد بن حَكَم أَنَّ الجانب الأكبر منه كان من المُقَطَّعَات الشِّعْرِيَّة الوصفيّة، والكثير منها مجرد مرتجلات، وفي كثير من الأحيان كانت تَشْبيهَات مفردة، أمّا بالنّسبة إلى التَّشْبيهاتِ والصُّور فقد وردت فِي شِعْرِ سَعيد بحجم معقول، ولم يكن يكثر منها كعادة معظم شُعَرَاء الأَنْدَلُس الذين استهوتهم التَّشْبيهات وقيدتهم، فقد حَرَّرَ شعرَهُ من الالتزام الصارم بالتَّشْبيهاتِ والصُّور ولم يغرق شعره فيها، لذا اقترب شعره إلى اللهجة الخطابيّة أحيانا، والعقليّة أحيانا أخرى، والوصفيّه في غيرهما. واعتماداً على هذه اللهجة الخطابيّة ذكر ابن حَكَم أسماء المخاطبين في أَبْيَاته الشِّعْرِيَّة، سواء أكان مَادِحًا أم راثيا أم مُخَاطِبًا، فأتى بالاسم صراحة دون تلميح.

ورغم دوران تَشْبيهَات سَعِيد بن حَكَم في فلك التَّشْبيهات القديمة إلا أنها جاءت رقيقة رشيقة، واضحة المعالم والخطوط، بسيطة الألوان، مفهومة الأبعاد، مألوفة، مطروقة في الغالب، لكنها تجلس في مكانها في القَصِيدَة وكأنها أُبدعت وابتكرت ابتكارا من أجل المناسبة بانسجام تام مع الكلام، مما يزيد من بهائها ويجدِّد ألوانها. ومن تَشْبيهَاته في أَبْيَات وجَّهَهَا لابن عميرة يتحدّث عن رحيل بنيه عنه بقوله (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص83): [الطويل]

وَلا غَرْوَ أَنْ لاقَى الخُسُــوفَ هِلالُــهُ　　　أَلَــمْ تَرَ بَــدْرَ الــتَمّ يُخْسَــفُ

نجد التَّشْبيه في مكانه، مُعَبِّرا، فتشبيه الصغار بالهلال، والحديث عن خسوف الهلال مألوف في الشِّعْر العَرَبِيّ، لكن أن يأتي الخسوف للهلال بهذه الصّورة المركَّبَة، إشارة إلى أنَّ ابن حكم أعاد تلوين الصُّورة القديمة فجاءت جديدة مُعَبِّرة. وما أجمل تعليله وأغربه حين عَلَّلَ شدة بكائه بعد فراق المحبوبة شوقا لها وبحالة الأمطارِ التي تَهْمُلُ بعد الشَّمْسِ الحارقة، فقد شَبَّهَ القدماء ثغر المرأة بالثلج وبالبرد والاقحوان وبالدُّرِّ وما أشبه ذلك، إلا أنَّ ابن حَكَم وفي القَصِيدَة نفسها شَبَّهَ ثَغْرَهَا بالنّوار (ابن سعيد، 685هـــ، **اخْتِصَار القِدْحِ**، ص31)، وفي نظمه المرسل إلى الأَمير أبي يحيى الحفصيّ (ت:646هــ) بدأ بمقَدِّمَة غَزَلِيَّة، ثمَّ شَبَّه فيها الكلامَ الجميل بالدُّرّ المنَظَّم في جيد الفتاة، وشَبَّهَ قطرات النَّدَى على الزَّهر بالعبرات اللامعة (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص44-45)، وهذه من التَّشْبيهات التَّقْليديّة، إلا أنَّ ابن حَكَم أعاد التلوين وأعاد التَّخْطيط فيها، لكنَّه في تَشْبيهَاته وفي ألوانه دارَ في دائرة التَّقْليد، ولم يأت بالمبْتَكَر الجديد فيها .

وَأكثر سَعيد بن حَكَم من استخدام البحور القصيرة والمجزوءة في شِعْره، وقد يكون لكونها مُقَطَّعَات مرتجلة سببٌ في ذلك، كما أنَّه لجأ كثيرا في شِعْرِه إلى تسكين أواخر الأَبْيَات خَاصَّةً في المُقَطَّعَات، فمن كلامه في الصَّفح والحلم عمَّن أَساء (ابن سعيد، 685هـــ، **اخْتِصَار القِدْحِ**، ص31): [مجزوء الكامل]

الحِقْــــدُ دَاءٌ في القُلُـــــوبْ　　　وَالصَّـــفْحُ مِنْـــهُ هُـــوَ
فَاحْلُمْ عَـــنِ الجَـــانِي فَقَـــدْ　　　يَـــــدْعُوهُ حِلمُـــــكَ أَنْ

ولم يكن غريبا أن يلجأ سَعيد بن حَكَم إلى المحَسِّنَات البَدِيعِيَّة يزّين بها نظمه، لكنّها لم تكن مفتعلة متكَلَّفة، مع أنها كانت كثيرة، ومبالغ فيها أحيانا، والأَشْعَار التي خلت منها كانت على الأغلب أكثر شَاعرِيّة وأصدق تعبيرا، وأقرب وصولا إلى نفس القارئ، لكنّها سِمَةٌ عندَ معظم شُعَرَاء ذاك العصر. وأكثر الفنون البديعيَّة التي استخدمها هي التَّجْنيس، فمنها ومن قَوْلِه (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص34): [مجزوء الخفيف]

يَـــا خَلِيَّـــا ذَرِ الشَّـــجِي　　　لَسْـــتَ تَـــدْرِي أَوْجالَـــهُ
قَدْ دَرَى مَا حَشْـــوُ الحَشَـــا　　　مَـــنْ جَـــلاهُ أَوْ جالَـــهُ

وَمِثْلُهُ لكن بِتَكَلُّف واضح قال في نظم الشِّعْرِ (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص44-45): [الكامل]

مَـــا الشِّـــعْرُ إلاّ شِـــعْرُ مَـــنْ تُهـــدِي　　　أَشْـــعارَها الشُّـــعَرَاءُ هَـــدْياً مُشِـــعْرًا

وَمِثْلُهُ فيه التَّجْنيس قَوْلُهُ (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص63): [الطّويل]

شباها شبابُ والمنايا مُـــنىً وَمَـــنْ　　　يُفَرِّقُ ما بينَ المَنَـــى وشَـــبابِها

وأحيانًا ألزم نفسَهُ مَا لا يُلْزَم، مثال ذلك إلزام نفسه بقافية واحدة للصَّدر والعجز، وهذه السّمة أكثر منها في أشعاره، منها ما جاء في أرجوزة طويلة له جاء فيها (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص31-32): [مشطور الرَّجز]

يَا كَاتِبًا مَا حَـــلَّ في الصُّـــدُورِ　　　حَتَّى تجَلّى حِلْيَـــةَ الصُّـــدُورِ

وَلا ثَـوَى بُمنْتَـوَى الضّـمِيرِ حَتَّى نَوَى عُرْفًا بِـلا نَكِـيرِ

وغيرها كثير فِي شِعْرِه، مع أنه أضاف شيئا إلى الموسيقى الدّاخليّة، لكن كثرة استخدامه والزام الشَّاعِر نفسه به كثيرا، أوهن شعره قليلا حين أخذ يزيد القيود ويكَلِّف نفسه بلزومها .

وورد شيءٌ من الاقتباسات والتَّضْمِين فِي شِعْرِ سَعِيد بن حَكَم، لكن نثره حوى منها أكثر، وحين جاءت في الأَبْيَات الشِّعْرِيَّة عنده كانت مدروسة جيدا وموضوعة في مكانها بقدرة ومهارة، بالأخصّ أنها في الشِّعْر كانت غير متَكَلَّفة، منها على سبيل المثال اقتباسه من الآية القرآنية ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (سورة الفُرقان، 63)، فقد جاءت في مكانها المناسب في البيت التالي (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص61): [الرمل]

وإذا خاطبـــهُ لائمُـــهُ في النّـدى جهْـلاً بـه قَـالَ

ومن قَوْلِهِ لُمحَمَّد بن الحلاب، وقد وهب له تحفا منوعة، وبعدها صندوقا (**اخْتِصَار القِدْح**، ص31): [السريع]

لا تعْـدُ قَيِّـدْ وَتَوكَّـلْ تَكُـنْ بصَـادق تَـأْتَمّ مَصْـدُوق

وفي البيت إشارة إلى ما روي عن عُمَر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أُقيِّد راحلتي وأتوكّل أم أُرسلها ؟ فقَالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّم، قيّدها وتوكّل. وجاءَ فِي شِعْرِه كثيرٌ من الأسماء والمواقف والأمثال القديمة مما يشيرُ إلى أنَّه امتاز بسعة الإطّلاع والثّقافة، وهذا ليسَ غريبا عليه لكثرة ما قيل عن اهتمامه بالعلم وحبّه للقراءة .

وكثرة الإِخْوَانِيَّات سمة بارزة فِي شِعْرِ ابن حَكَم، وكثرتْ عنده المراجعات لنظم غيرِه من الشُّعراءِ، فأكمل بعضَهَا أو تابعها بالتّعليق، وبدا التَّقْليد واضحًا حين اختار بيتا وضمَّنه فِي شِعْرِه. ويرى البحث أنَّ هذه المراجعات لغيره من الشعراء تناسب ما وصل إلينا عنه أنه امتاز بالتواضع واللين والمشاركة العاطفيّة، لذا لم يجد حرجا أن يقتفي أو يقلّد، ولم يعتبر اتّكاؤه هذا على شعر غيره عَيبًا، وهذا يتلاءم مع شخصيّته المتواضعة اللّيِّنة التي لم تعرف التّكبّر ولم تطلب التّفرّد، فكأنَّهُ يريد أنْ يَظلَّ بين إخوانه من الشُّعَرَاء يَقُولون فيُتَابعهُم، ويسألون فيُجَاوبهم، ويصفون فيكمل وصفهم، فكان شِعْرُ سَعِيد بن حَكَم بلاطًا أَدَبيًّا مفتوحًا على الدَّوام. فقد أَنشده يوماً ابن يامين أبياتًا يحضُّ فيها على الإنفاق، فتابعه ابن حَكَم وردّ عليها (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص51)، ومثلها حين نظمَ أَبو العرب الصّقّليّ(ت:506هـ) في نبات الحرْشُف، فزادَ ابن حَكَم عليه بيْتاً (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص59). ويوجد بيْتان كَتَبَهما على ظهر كتاب المنتهج لذي الوزارتين ابن أبي الخصال (ت:540هـ) (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص54). ولم يكن في متابعاته مقتفيا إثر شُعَرَاء المغرب العَرَبِيّ فحَسب، بل تطلّعت قريحته الشِّعْرِيَّة إلى متابعة أهل المشرق، فقالَ في رمضان (**لُبَاب الأَلْبَاب**، ص68): [الرجز]

ولم يقلْ فيما اقتضـاهُ رمضـانْ منَ الصّيـامِ والطّعـامِ

وفي الكلام إشارة إلى قول تاج المُلوك (ت:579هـ) أخي السُّلطان صلاح الدّين (عبد الهادي، حسن، 1997م، **دراسة شعر تاج المُلوك بوري بن أيوب**، ص121): [الكامل]

رَمَضَانُ بَلْ مَرَضَـانُ إلاّ أنَّهُـمْ غَلطُوا إذًا في قَوْلهِمْ وَأَسَـاؤُوا
مَرَضَـانُ فيـهِ تَخَالَفَـا: سِلٌّ، وَلَكِنْ لَيْلُـهُ اسْتِسْـقَاءُ

وظهر في شِعْرِه كثيرٌ من النَّقْدِ للشُّعَرَاءِ، ومن الأمثلة على ذلك قوله (**لُبَاب الألْبَاب**، ص31):[المتقارب]

أَتَتْـنِيَ أَبْيَاتُـكَ الرَّائقَـاتُ يَنْظمُهَـا الحُسْـنُ أَوْ
تَصَـفَّحْتُ نَظْمَـاً بَـديعًا تَهُ لي وَيا حُسْنَ مَا ترْسُـمُهْ

ولمْ يترل سَعيد بن حَكَم في شِعْرِه السَّهْل والعَاميّ من اللغة، ولم يتحَرّر من قيود وتقاليد الشِّعْر العَرَبيّ، لذا لم يكن غريبا أن لا نجد لديه اهتماما واضحًا بالموَشَّحَات أو الأزْجَال الشَّعْبيَّه، بل يرى البحْثُ أنَّهُ حاوَلَ الارتقاء بالشِّعْر إلى نموذج الشِّعْر العَرَبيّ القديم، ومحاولاته البدْء بالمقَدَّمَات الطَّلَليّة والغَزَليَّة في مدائحه تُؤكِّدُ هذا عنده. حتى أنَّهُ كما سبق وأشارَ البحْثُ ابتعد كثيرا عن مظاهر التَّجْديد في الموضُوعات الشِّعْريَّة، فلم يُكثِر من وصْفِ مجالس الأنس، ولم يَتَطَرّق إلى وصف الطَّبيعَة، والتزم بالفنون التَّقْليديّة والأبحر العَرَبيَّة، لكن ورد في ديوان ابن سَهْلٍ مُوَشَّحَة له قَالَ فيها (**ديوان ابن سَهْلٍ**، 649هـ، ص333):

طيف ألمْ شفق ألمْ شوقٌ هجمْ هجمةَ الأشدِّ
كادَ يبيدْ منه العميدْ وهلْ يُفيدْ ذاكَ أو يجدي

خَامسًا: الخَاتمة والتَّوْصِيات

تَوصَّلَ البحثُ إلى أنَّ سَعيد بن حَكَم نظمَ في بعضِ الأغراض، وكان نظمُهُ في الغَزَل قليلا إلا أنه كان شعْرًا جيدا، وتنوّع مدحه بين المُقَطَّعَات والمرتجلات والقَصَائد الطّويلة، وفي الطّويلة منها التزم بعمودِ الشّعرِ العَرَبيّ، فبدأها بمقَدِّمَة غَزَليَّة تَقْليديّة، ولم ينظُم في الرِّثَاء كثيرًا، وكان أكثر وأحَدَّ رثائه ما جاء في رثاء بَنيه، خاصَّة ابنه مُحَمَّد ثم ابنَته، وكان ابن حَكَم فَقيها شَاعِرا، لذا انطلق لسانه بالنَّظْمِ في الشِّعْر الدّينيّ والوَعْظ وَالزُّهْد. وبرزت الحِكْمَة كثيرًا في شِعْرِه، خَاصَّةً في موضوع الرِّثَاء، لكنها لم تكن أَبْيَاتًا مُتَتَابعة مُتَتَالية كما أنَّها كانت بسيطة بعيدة عن العمق والفلسفة تعتمد في معظمها على التّجربة وواقع الحياة أكثر من اعتمادها على الفلسفة والمنطق.

وقد أقام سَعيد بن حَكَم في جَزيرَة مَنُرْقَة حُكْمًا يتّسم بتشجيع العلم والأَدَب فقصده أهل العلم وطلبته، وشهدَ بلاطُهُ ازدِهارًا وتطَوُّرا ثَقَافيًّا، فكان بلاطُهُ مَعْلَمًا واضحا من معالم ازدهار الأَدَب العَرَبيّ في الأَنْدَلُس، ولا

يُوجَدُ حصرٌ دقيقٌ لعدد مَنْ تجمّع عند ابن حَكَم منهم العُلَماءِ والشُّعراء، لكن البَحْثَ سَمَّى بعْضَهُم. ولاهتمامه بالعلم والعلماء نظم كثيرًا في العِلْمِ وَالكِتَاب، وكانت له ملاحظات نقديّة على ما جاء في بعض الكُتُب، ورغم إحاطَةِ الشُّعراء والأصدقاءِ به إلا أنَّ البحْثَ لم يجد له نظمًا في الطَّرْدِيَّات ومجالس الأُنْس والسَّمَر واللهو في أحضان الطَّبِيعَة.

والجانب الأكبر من نظم ابن حَكَم كان من المُقَطَّعَات الوصفيّة، وكثير منها كانت مرتجلات، أو تَشْبيهَات مفردة، واقترب منَ اللهجة الخطابيّة، ويُلاحَظُ على نظمِه الرِّقّة وَالسُّهولة والبساطة في الألفاظ والتعبيرات، فجاء الشِّعْر عنده جاريا مع الطَّبع والبديهة والعفويّة، مع المحاورة البسيطة أحيانا. إلا أَنَّهُ لم يلجأ إلى استخدام اللغة الدّارجة أو الكتَابة في الألوان الشّعبيّة كالمُوَشَّحَات.

وابتعد سَعِيد بن حَكَم كثيرا عن مظاهر التَّجْديد في الموضُوعات الشِّعْرِيَّة، والسّمة الغالبة على نظمه هي التَّقْليد، والتزم بالأبحر العَرَبِيَّة،إلا أَنَّهُ أكثر من البحور القصيرة والمجزوءة، كما أَنَّهُ لجأ سَعِيد بن حَكَم إلى المحَسِّنَات البَدِيعِيَّة، وأكثر الفنون البديعيَّة التي استخدمها هي التَّجْنِيس، وأحيانًا ألزم نفسَهُ مَا لا يُلْزَم.

وكان جُلَّ اعتماد البحث على كتاب مخطوط تحت الطَّبع قام بتحقيقه أستاذي د. حسن فليفل وهو "لُبَاب الأَلْبَاب من نظم الشُّعَرَاء ونثر الكُتَّاب؛ نصوص من الشِّعْر والنَّثْر في عصر المَوَحِّدِينَ بالأَنْدَلُس" لمؤلف مجهول من القرن السَّابع الهجريّ. يكشف هذا المخطوط السِّتار عن هذه الظَّاهِرَة الحَضَارِيَّة، المتمَثِّلَة في شخصيّته سَعِيد بن حَكَم السِّيَاسيَّة والأَدَبيَّة، ويرى البحثُ أنَّ اللمْحات السَّريعَة والإضاءات السَّاطعة المأخوذة من هذا المخطوط فحسب تُشيرُ إلى أنَّ هناكَ تقصيرًا بحَقِّ هذا التُّراث المَنْسِيّ من أَدَبنا، ألا وهو الأَدَب الأَنْدَلُسِيّ، من هنا يوصي البَحْث أنْ يُشَمِّرَ المُهْتَمُّون عن يد الجدّ للبَحْث ولإعادة التَّحقيق وإعادة النَّشر لكثير من المخطوطات والكُتُب المركونة على رفوف المكْتَبَات العالميّة هنا وهناك، لفَضِّ فُضَّ غُبَار التَّجَاهُلِ عَنْها، لما بها من فائدة عظيمَة من الممكن أن تضيف الجديد إلى التّراث الإنْسانيّ، والعَرَبِيّ والإِسْلامِيّ منه خاصَّة، بإحياء هذا التّراث المهْمَلِ من الحضارة الإنسانيّة .

المَرَاجِع وَالمَصَادِر

- القرآن الكريم
- ابن الأَبَّار، مُحَمَّد بن عبد الله القضاعيّ. (ت:658هـ). **الحلّة السِّيَرَاء** (تحقيق: حسين مؤنس). (ط1). 1933م. القاهرة: الشّركة العَرَبِيَّة للطباعة والنّشر .

- ابن الأَبَّار، مُحَمَّد بن عبد الله القضاعيّ. (ت:658هـ). **المقتضب من كِتَاب تحفة القادم** (تحقيق: إبراهيم الأبياريّ). (ط3). 1989م. القاهرة: دار الكِتَاب المصريّ و بيروت: دار الكِتَاب اللبنانيّ .
- بروفنسال، أ. ليفي. (1960م). **حضارة العرب في الأَنْدَلُس** ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- حسين، عبد الرزّاق. (1994م). **الأَدَب العَرَبِيّ في جُزُر البليار**. (ط4). عمان: دار الجليل للنّشر والدّراسات والأبحاث الفلسطينيّة .
- الحمويّ، ياقوت بن عبد الله البغداديّ. (ت:621هـ). **معجم البلدان**. 1956م. بيروت: دار صادر .
- الحميريّ، مُحَمَّد بن عبد المنعم. (ت:900هـ). **الرّوض المعطار في خبر الأقطار** (تحقيق: إحْسَان عَبَّاس). (ط2). 1980م. مؤسّسة ناصر للثّقافة .
- ابن خاقان، الفتح. (ت:529هـ). **قَلائِد العِقْيَان وَمَحَاسِنِ الأَعْيَان** (تقديم: مُحَمَّد العناني) مكتبة العتيقيّة، تونس.
- ابن الخطيب، لسان الدّين السلمانيّ. (ت:776هـ). **أَعْمَال الأَعْلام** (تحقيق: أ. ليفي بروفنسال). دار المكشوف.
- ابن سَعِيد، عليّ بن موسى. (ت:685هـ). **المغرب في حُلى المغرب** (تحقيق: شوقي ضيف). (ط4). 1993م. مصر: دار المعارف.
- ابن سَعِيد، عليّ بن موسى. (ت:685هـ). **اخْتِصَار القِدْحِ المُعَلَّى في التَّارِيخ المحلَّى** (تحقيق: إبراهيم الأبياريّ). 1959م. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأَميريَّة .
- ابن سَهْلٍ الأَنْدَلُسِيّ. (ت:649هـ). **ديوان ابن سَهْلٍ** (تقديم: إحْسَان عَبَّاس). 1980م. بيروت: دار صادر .
- سيسالم، عصام. (1984م). **جُزُر الأَنْدَلُس المَنْسِيَّة؛ التَّارِيخ الإِسْلامِيّ لجُزُر البليار 89- 685هـ**. بيروت: دار العلم للملايين.
- السّيوطيّ، جلال الدّين. (ت:911هـ). **بُغْيَة الوعَاة**. (تحقيق: مُحَمَّد إبراهيم). (ط1). 1964م. بيروت: دار المعرفة .
- عبد الهاديّ، حسن. (1997م). **دراسة شعر تاج المُلُوك بوري بن أيوب،مع تحقيق ديوانه**.دار الينابيع للنّشر والتّوزيع.
- الغبرينيّ، أبو العَبَّاس. (ت:714هـ). **عنوان الدِّرَايَة فيمن عرف في المائة السابعة ببجّاية**. (تحقيق: عادل نويهض). (ط2). 1979م. بيروت: دار الآفاق الجديدة .
- غومس، إميليو غرسيه. (1956م). **الشِّعْر الأَنْدَلُسِيّ؛ بَحْث في تطوّره وخصائصه**. (ترجمة: حسين مؤنس). (ط2) . القاهرة: مكتبة النهضة المصريّة .
- **لُبَاب الأَلْبَابِ من نظم الشُّعَرَاء ونثر الكُتَّاب؛ نصوص من الشِّعْر والنثر في عصر الموَحِّدِينَ بالأَنْدَلُس**. (تحقيق وتقديم: حسن فليفل). (المؤلف مجهول، والكتاب تحت الطبع) .
- المقَّرِيّ، أحمد بن مُحَمَّد التلمسانيّ. (ت:1041هـ). **نَفْح الطِّيب من غصن الأَنْدَلُس الرَّطيب**. (تحقيق: مريم طويل، ويوسف طويل). (ط1). 1995م. لبنان: دار الكُتُب العلميّة .

انتهى البحث

nafitha@gmail.com